دار الحديث العراقية

جزء عم

تفسير سورة

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، اللهمَّ إنَّا نسألك رحمتك فهي خيرٌ مما يجمعون .

أما بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه وكذا غيره من أهل الحديث ، وكذا في بعض المصاحف ، وهَذِهِ السُّورَةُ وَرَدَتْ تَسْمِيَتُهَا فِي السُّنَّةِ بـ : ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَامَ مُعَاذٌ فَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ فَطَوَّلَ فَشَكَاهُ بَعْضُ مَنْ صَلَّى خَلْفَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وَالضُّحَى**)) .

وَفِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَرَأْتُ (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**) الْأَعْلَى فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ في جامعه من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) وَ((**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**)) .

وَسَمَّاهَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَكُتَّابُ الْمَصَاحِفِ (سُورَةَ الْأَعْلَى) لِوُقُوعِ صِفَةِ الْأَعْلَى فِيهَا دُونَ غَيْرِهَا.

وهي سورةٌ مكيةٌ ، وهي تسعُ عشرةَ آيةً . ومناسبتُها مع سابقتها أنَّه أمرهُ بإمهال الكفرةِ والغَيبةِ عن أذاهم بالاشتغال بالتسبيح والذكر ، وهذا المعنى يتناسبُ مع حرمة القتال في الأشهر الحرم ؛ ليتفرغ المجاهد لتزكية النفس ، وجاءتِ التزكيةُ أيضاً في خاتمة هذه السورة ، فسبحان من نظم كتابه على أحسن نظم واتساق .

وهذه السورة تبدأ الربعَ الأولَ من الحزب الستّين في المصحف الكريم ، وأولُ ما يُفتتحُ به هذا الربع في فاتحة سورة ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) هُو أمرُ اللهِ لرسوله وللمؤمنين معه بتمجيد اسم الله وتنزيهه ، واستحضار أسماءه وصفاته الحسنى ؛ ليُعّظم اللهُ في القلوب ، وإذا خشعتِ القلوبُ خشعتِ الجوارح .

وتتضمنُ السورةُ أمرَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم – وهو أمرٌ لأمته – بتقديس اسم الله ، وفي السورة إيذانٌ بأنَّ اللهَ مُسيرُهُ وميُّسرهُ في طريق اليُسر ، وأمَرهُ بالتذكير وتبشيرِ المستجيبين بالفلاح وإنذارِ المتمردينَ بالنَّار .

أمَّا أغراضها فهي كما قال ابن عاشور : ((اشْتَمَلَتْ عَلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِشَارَةِ إِلَى وَحْدَانِيَّتِهِ لِانْفِرَادِهِ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَخَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا فِيهِ بَقَاؤُهُ .

وَعَلَى تَأْيِيدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَثْبِيتِهِ عَلَى تَلَقِّي الْوَحْيِ .

وَأَنَّ اللَّهَ مُعْطِيهِ شَرِيعَةً سَمْحَةً وَكِتَابًا يَتَذَكَّرُ بِهِ أَهْلُ النُّفُوسَ الزَّكِيَّةِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيُعْرِضُ عَنْهُمْ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يعبأون بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ .

وَأَنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ يُصَدِّقُهُ مَا فِي كُتُبِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ تَهْوِينٌ لِمَا يَلْقَاهُ مِنْ إِعْرَاض الْمُشْرِكين)) .

وهذه السورة أيُّها الأحبةُ حوتْ على بشارتين عظيمتين الأولى في قوله : ((**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى**)) أي : سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب والسنة ، ونوعيه قلبَك ، فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة كبيرة عظيمة من الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : أنَّ الله سيُعلِمُهُ علمًا لا ينساه .

والثانية : في قوله : ((**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى**)) وهذه أيضًا بِشارةٌ كبيرةٌ أنَّ الله يُيسر رسوله صلى الله عليه وسلم لليسرى في جميع أموره ، ويجعل شرعه ودينه يُسراً .

ولهذه السورة وظائف فقد أخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والحاكم والبيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة

الأولى (سَبِّحِ) وفي الثانية (قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ) وفي الثالثة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وجاء نحوه عن أبي بن كعب .

وأخرج ابن أبي شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود و ابن ماجه الترمذي والنسائي من حديث النعمان بن بشير أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**) و(**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ**) وإنْ وافق يومَ الجمعة قرأهما جميعاً .

وتتضمنُ السورةُ كما مرَّ أمرُ النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم بتقديس اسم الله ، وفيها الإيذان له بأنَّ الله مُيّسرهُ في طريق اليسر ، وأمره بالتذكير وتبشير المستجيبين بالفلاح وإنذار المتمردين بالنار.

وأسلوبُ السورة يُلهمُ أنَّها بسبيل عرضٍ عامٍ للدعوة وأهدافها ومهمةِ النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ، وهذه السورة لها محبة خاصة فقد أحب النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورةَ الأعلى ؛ لأنَّها سورةُ ربه وأنَّ ربه بشّره فيها ببشارتين عظيمتين الأولى أنَّه يُيَسره لليسرى ، ومن ثم ما خير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين شيئين إلا اختار أيسرهما ، والثانية : أنَّه حفظه من النسيان بأنْ جعله لا ينسى ، ولذا كان يصلي بهذه السورة الجمع والأعياد والوتر .

قال تعالى : ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) .

أي : نزّه – أيُّها الرسولُ الكريمُ ويا كلَّ مؤمن – اسمَ ربك الأعلى عن كل ما لا يليق به ، فلا تطلق أسمائه على غيره تعالى إذا كانت خاصةً به ، كاسم الجلالة (الله) واسم (الرحمن) ولا تذكرها في موضع لا يتناسب مع جَلالها وعظمتها ، ولا تحرّفها عن المعاني التي وضعتْ لها كما يفعل الزائغون . فقد قال تعالى : ((**وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)) .

ونزِّه ربك الأعلى ، عن الشريك ، وعن الوالد ، وعن الولد ، وعن الشبيه ، وعن كل ما لا يليق به .

أَيْ : مَجِّدْهُ بِأَسْمَائِهِ الَّتِي أَنْزَلْتُهَا عَلَيْكَ وَعَرَّفْتُكَ أَنَّهَا أَسْمَاؤُهُ نحو قوله تعالى : ((**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ**)) وَنَظِيرُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ((**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)) .

وردد الآية ملياً ((**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)) وتأملْ ما فيها أي : سَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ نَزِّهِ اللَّهَ تَعَالَى بِذِكْرِ اسْمِهِ الْمُنْبِئِ عَنْ تَنْزِيهِهِ وَعُلُوِّهِ عَمَّا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ ، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ أَيْ نَزِّهِ الِاسْمَ مِنَ السُّوء .

ومن المعلوم أنَّ الانتفاع بالتسبيح رهنٌ بالإخلاص فيه وعدم اقتصاره على الحركة اللسانية ، بل التسبيح بإعمال اللسان والشفتين واجتماع القلب حيئنذ يستشعر التذكير والتنبيه والحافز على مراقبة الله عز وجل وتقواه .

والآية تشمل : سبح ربك .

وسبح اسمه .

وسبح ربك بأسمائه .

فعلى المعنى الأول : سبح ربك ، أي : نزهه عن جميع المعاني التي يحتملها غيره من الآفات والحاجات والأضداد والأنداد ؛ فيكون التسبيح به توحيداً .

وروي عن مقاتل بن سليمان أنه قال : تأويله : وحد ربك ، وتوحيده ما ذكرنا ، ويقرب من ذلك الثاني والثالث .

والتسبيحُ تنزيهُ الله وتقديسه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص ، فالتسبيحُ تمجيدٌ لله بالبراءة من الصفات التي لا تليق به .

وأصل السبح في اللغة الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء والهواء برفق ولين . والمسبح يجد الراحة والطمأنينة بسبح روحه بذكر الله تعالى ومحبته والعيش مع جماله وجلاله ، فالتسبيحُ إذن كلمةٌ رضيها الله لنفسه فأوصى بها .ويكون الذكر المطلوب متضمناً معنى سبح النفس والقلب والفكر في إبعادٍ غيرَ مُدركةِ النهاية من عظيم صفات الله وأسمائه الحسنى .

لكنَّ سبحَ النفس والروح والقلب يكون مع ذكر الله وتسبيحه إذا صرفَ الشواغلَ عن قلبه، وأقبل إلى ربه بقلبه وقالبه .

فإذا فعلَ كانُ التسبيحُ جوهرَ العبادة والتطبيق العملي لما في القرآن العظيم .

والسبُّوحُ القدّوسُ هو الله المنزّه عن كل نقص وسوء ، وهو الذي يسبحه كلُّ شيء ، والقدّوس هو الطاهر المبارك الذي يقدّسه ويعظّمه كلُّ شيء .

والتسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب والروح ؛ لأنَّه يمنح الهدوء والسكينة والطمأنينة والراحة ، وحينما يسبّح المؤمن متدبراً عظمةَ ربه القدوس يُفرغ الشحنات الضاغطة عن فكره ونفسه وقلبه وروحه ، وبتفريغها يزدادُ نشاطه وتعملُ قواه الكامنة طاقتها ؛ لذلك فإنَّ الله أوصى نبيَّه بأنْ يتعبد الله بالتسبيح علاجاً لما يصيبه من ضيق الصدر والهم والحزن ، وهذه الوصية تكررت في كتاب الله مراراً ، وتأمل في سورة (ق) التي اهتمت بشأن إصلاح القلب ودفع اعتلاله قال تعالى (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن اليل فسبحه وأدبار السجود) فأرشده ربُّه ومولاه إلى التسبيح علاجاً يصرف عن النفس ما يؤلمها أو يزعجها في أوقات موزعة .

ونحو ذلك قوله تعالى :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

وكذلك قوله تعالى :

(فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار)

وكذا قوله تعالى :

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن اليل فسبحه وإدبار النجوم)

وفي ذكر الرب في قوله : ((**اسم ربك**)) أي : المحسن إليك بعد إيجادك على صفة الكمال بتربيتك على أحسن الخلال حتى كنت في غاية الجلال والجمال .

و(الأعلى) : أي فوق كل شيء والقاهر لكل شيء .

و(الْأَعْلَى) يقتضي أنْ يكون هناك من المخلوقات أدون وأسفل ، نحو قول : " اللَّهُ أَكْبَرُ " فيقتضي الأصغر ، ومعنى قوله : (الْأَعْلَى) أي : هو أعلى من أن تمسَّه حاجةٌ أو تلحقه آفةٌ ، وكذا هذا في الأكبر ، ويكون الأكبر والأعلى في النهاية عن تنزيه المعاني ، وهو كقولك : هو أحسن وأجمل ، فإذا قلت : أحسن وأجمل ، أردت به النهاية في الحسن والجمال .

و (الْأَعْلَى) بمعنى : العلي و " الأكبر " بمعنى : الكبير ، وذلك جائز في اللغة فهو أعلى من كل عليٍّ وأكبرُ من كل كبير .

وخلاصة الأمر : نزّه ربك الذي علا على خلقه في السماء ، وعلوه يشمل علو الذات وعلو القهر فهو القاهر فوق عباده وعلو القدر بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى . وفي هذا التسبيح يستذكر الإنسان أنه الفقير وأنَّ الله هو الغني ، و يستذكر العبد أنَّه الضعيف وأنَّ الله هو القوي ، وأنَّ الإنسان يموت وأنَّ الله حيٌّ لا يموت .

ثم قال تعالى : ((الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)) .

(خَلَقَ فَسَوَّى) أي : خلق كلَّ شيء فسوّى خلقه تسوية ، ولم يأتِ به متفاوتاً غير ملتئم ، بل على إحكام واتساق وتناسب ، ودلالة على أنَّه صادرٌ عنْ عالمٍ حكيمٍ خبيرٍ ، وأنَّه صنعةُ حكيم قال ابن كثير : ((وَقَوْلُهُ : (**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**) أَيْ : خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وسَوّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ)) .

وهذه الآيةُ تشملُ معانٍ منها : أن يكون سّواه على ما قدّره ، وذلك خلافاً لأفعال الخلق ؛ لأنَّ الفعلَ من الخلق يخرجُ مرّةً سوياً على ما قُدّر ، ومرةً غير سوي .

ويكون سوّى الخلقَ كلَّه في دلالة وحدانيته وشهادة ربوبيته ، فما من خلق خلقه إلا إذا تفكر فيه العاقل ، دلت خِلقتُهُ على معرفة الخالق ، ووحدانية الرب ، وسوّاه أيضاً على ما فيه مصلحته ومنفعته فسبحان الملك القدوس خالقِ كلِّ شيءٍ ، وهو الواحد القهار .

وسوّاه على ما لَهُ خُلق ؛ ألا ترى أنَّ الإنسانَ إذا أُمرَ بالركوع والسجود خلقه من وجه يتمكن من الركوع والسجود ؛ فيشمل المعنى أنَّه سوّاه على ما له خُلق ، ولذلك تجد كثيرين قد انتكسوا فصاروا يصلون على الكراسي ؛ ليفوتهم السجود الذي هو الركن الأهم ، نسأل الله العافية والخلاص والإخلاص .

والآية مع التي قبلها أي : سبّحه لأنَّه خلق الخلق وجعل كل مخلوق مناسباً لما خلقه له ، فهو يقوم بالأعمال التي تناسبه ؛ فعلى هذا تسبيحُ الله تعالى وذكرُهُ علامةٌ من علامات يقظة العبد بإدراكه عظيم قدْر ربه الذي خلقه وخلق الخلق أجمعين ؛ ولذا فإنَّ النظر في الكون والتفكيرَ في بديع مخلوقات الله مجالٌ عظيمٌ لمعرفة عظمة الرب .

وفي هذه الآية : ((**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**)) أَطْلَقَ الْخَلْقَ ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ كَمَا فِي سورة «السَّجْدَةِ»، ((**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**)) . لذا فإنَّ المواهب الذاتية للمخلوقين فضلٌ إلهيٌّ لا يجوز أنْ ينسبه مخلوقٌ لنفسِهِ .

ثم قال تعالى : ((**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**)) أي : قدّر لكل حيوان ما يصلحُهُ ، فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به .

(هَدَى) أَيْ : دَلَّه بِأَفْعَالِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ ، وَنُعُوتِ صَمَدِيَّتِهِ ، ووحدانيته ، فالْعَاقِلُ يَرَى فِي العالم أفعالاً مُحْكَمَةً مُتْقَنَةً مُتَسِقَةً مُنْتَظِمَةً ، فَهِيَ لَا مَحَالَةَ تَدُلُّ عَلَى الخالق العظيم .

فقَوْلُهُ : ((**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**)) قَالَ مُجَاهِدٌ : هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا .

وفي مواعظ موسى لِفِرْعَوْنَ كما قصّه القرآن : ((**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**)) أَيْ : قَدَّرَ قَدْرًا ، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ .

فقوله تعالى : ((**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**)) (**قَدَّرَ**) ، أي : قدّر لخلقه معايشهم ، وهداهم وجه أخذ المعيشة ، وما يصلح أحوالهم وأمورهم .

قال الآلوسي : ((**وَالَّذِي قَدَّرَ** ... أي : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة .

فَهَدى أي : فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغي له . فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات ، لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول ، وتضيق عنه دفاتر النقول)) .

ثم قال تعالى : ((**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**)) .

أيْ : أنبتَ ما يرعاهُ الدوابُّ غضّاً طرياً يرفُ ، وخُصَّ المرعى بالذكر ؛ لما بالمراعي قوامُ هذا الخلق؛ لأنَّه لا بد للبشر من الدواب والأنعام ؛ للتعيُش ، والداوبُّ حياتها بالمراعي ؛ فكان قوام

الخلق في التحصيل بإخراج المراعي ، فذكّرهم ربنا بمرعاهم ؛ ليحصل منهم الشكر ؛ فالدوابُ إنَّما أنشئتْ للخلق ؛ ليتمتعوا بها ، ثمَّ اللَّهُ تعالى بفضله أنشأ للدواب مراعي ، وقدَّر لها أقواتها ، ولم يُضيعها ، فكيفَ يُضيعُ هذا الخلق ، وهم الذين قَصَدَ إليهم منْ خلق هذا العالم ، فلا يرزقهم ، ويخرجهم من تدبيره .

ثم قال تعالى : ((**فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**)) .

أَحْوى صفة لغثاء ، أي : أَخْرَجَ الْمَرْعى أنبته فَجَعَلَهُ بعد خضرته ورفيفه غُثاءً أَحْوى أي : أسود.

ويجوز أنْ يكون أَحْوى حالاً من المرعى ، أي : أخرجه أحوى أسود من شدّة الخضرة والرّي ، فجعله غثاءً بعد حوّيه .

الغثاء : اليابس الذي تحمله السيول والأمطار ، وهذا مَثَلٌ ضُربَ لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

ثم قال تعالى : ((**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى**)) .

أي : سنعلمك فتحفظه ، وهذا كقوله : ((**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**)) ، وقوله : ((**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**)) .

أخرج البخاري في صحيحه من حديث سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ((**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**)) قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُهُمَا ، وَقَالَ سَعِيدٌ : أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا ، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ((**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**)) قَالَ : جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ : ((**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**)) قَالَ : فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ : ((**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَه .

وقوله تعالى : ((**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**)) بعد قوله تعالى : ((**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى**)) .

النسيان : زوال ما كان موجوداً في حافظة الإنسان ؛ فالسهو في حق الأنبياء جائز ، لأنَّه من قهرية الربوبية ، لتتميز به العبودية من الربوبية ، فليس بنقصٍ في حقهم ، وتأمل قول الله تعالى : ((**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار**)) فكلُّ مخلوق فاللهُ خالقُهُ وكلُ مخلوقٍ مقهورٌ بالله .

فقوله تعالى : ((**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**)) أي :

سنجعلكَ حافظاً بإلهامِ القراءةِ فلا تنْسى أصلاً من قوةِ الحفظِ والإتقانِ مع أنَّكَ أميٌّ لا تدرِي ما الكتابُ ولا الإيمان ولا القراءةُ ؛ ليكونَ ذلك آيةً أُخْرى لكَ معَ ما في تضاعيفِ ما تقرؤوه من الآياتِ البيّناتِ من حيثُ الإعجازُ وحسنُ النظم ومن حيثُ الإخبارُ بالمغيبات .

فهنا بشّرهُ اللهُ بإعطاء آيةٍ بيّنةٍ ، وهي : أنْ يقرأ عليه جبريلُ ما يقرأ عليه من الوحي وهو أميٌّ لا يكتب ولا يعرف الخط ، فيحفظه ولا ينساه إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته ، كما قال تعالى ((**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)) وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُعجّلُ بالقراءة إذا لقنَّه جبريلُ حرصاً على العلم ولنقتدي به ، فقيل : لا تعجل ، وذلك لأنَّ جبريل مأمورٌ بأنْ يقرأه على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قراءةً تُحفّظُهُ ، ثم لا ينساه إلا ما شاء الله .

قَالَ الْوَاحِدِيُّ : ((**سَنُقْرِئُكَ**)) أَيْ : سَنَجْعَلُكَ قَارِئًا بِأَنْ نُلْهِمَكَ الْقِرَاءَةَ فَلَا تَنْسَى مَا تَقْرَؤُهُ ، وَالْمَعْنَى نَجْعَلُكَ قَارِئًا لِلْقُرْآنِ تَقْرَؤُهُ فَلَا تَنْسَاهُ .

فَمَعْنَى الْآيَةِ إذن بِشَارَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ بِأَنَّ الله جعله قارئاً حافظاً بِحَيْثُ لَا تَنْسَاهُ أبداً ، فالآية خبرٌ وليس انشاءً وهي إعلامٌ ولست نهياً ، وَإِذَا جَعَلْنَا الآية نَهْيًا كَانَ مَعْنَاهُا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِأَنْ يُوَاظِبَ عَلَى الْأَسْبَابِ ؛ ولذا أنَّ حق الآية بالنسبة لنا أنْ نواظب عليه فلا ننساه ، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم شكوراً يؤدي العبادات على أحسن وجه .

وفي حفظه – عليه الصلاة والسلام – ما يوحى إليه دلالة رسالته ؛ لأنَّه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة ، ثم كان يقرأ جميع ما يلقى إليه بمرة واحدة ، مع ما كان مأموراً ألا يحرك لسانه بشيء مما يوحى إليه إلى أنْ يقضي إليه الوحي ، ومن كانت حالته كذلك تعذّر عليه حفظ ما يلقى إليه بمرات فكيف يضبطه بمرة واحدة ؛ فكان حفظه بالمرة الواحدة نوعاً من دلائل نبوته .

و هذه آيةٌ تدل على دلالة النبوة من وجهين :

أحدهما : إنَّه كان رجلاً أميّاً ؛ فحفظُهُ لهذا الكتاب المطول عنْ غير دراسة ولا تكرار ولا كتابة ، أمرٌ خارق للعادةٌ ، فيكون معجزاً .

وثانيهما : إنَّ هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فكان دلالة للنبوة .

وفى قوله تعالى : ((**إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ**)) إشارة إلى أنَّ هذا الحكم المطلق المؤيد بعدم النسيان ، هو رهنٌ بمشيئة الله ، وأنَّ مشيئة الله مطلقةٌ لا يقيدها شيءٌ .

فلو شاءَ سبحانه أنْ يُذهب بما حفظ النبيُّ من آيات الله لذهب به ، ولكنَّه ، سبحانه لم يشأ، فهى مشيئة مقيّدة بمشيئة ، وكلا المشيئتين من الله ، وإلى الله ، وهذا نحو قوله تعالى : ((**وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ**)) وفي ذلك بيانُ المنّة العظيمة في إنزال هذا الكتاب .

ولا يصلح للمرء إلا سنة النبي المختار صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ ، فلما كانتِ السنةُ التي توفى فيها النبيُّ، عرض على جبريل القرآن كلَّه ، مرتين ، وقيل ثلاث مرات ، وذلك لتأكيد ما حفظ النبيُّ وتوثيقِه .

وفي ذلك معنى أنَّ سُنن الله الكونية وهى من مشيئته وحكمته قائمةٌ أبداً ، وأنَّ الأخذ بالأسباب مطلوبٌ في كل حال ، ومع كل مخلوق ، حسب وجوده فى عالمه .

وهذه الآية ((**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**)) نحو قوله : ((**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**)) ؛ فدلت هذه الآية أنَّهم كانوا على خوف ووجل عن ارتكاب ما يُسلبُ به الوحيُّ ويُنسى .

ثم قال تعالى : ((**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**)) .

وقصارى هذا إنَّ فائدة هذا الاستثناء بيانُ أنَّه تعالى قادرٌ على أنْ يُنسيه ، وأنَّ عدمَ النسيان فضلٌ منَ الله وإحسانٌ إليه لا من حوله ولا من قوّته .

وتأمل الآية : ((**إِنَّهُ**)) تَعَالَى ((**يَعْلَمُ الْجَهْرَ**)) مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ((**وَمَا يَخْفَى**)) مِنْهُمَا .

قال ابن عاشور : ((وَمُنَاسَبَةُ الْجَهْرِ وَمَا يَخْفَى أَنَّ مَا يَقْرَؤُهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْجَهْرِ فَاللَّهُ يَعْلَمُهُ ، وَمَا يَنْسَاهُ فَيُسْقِطُهُ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْخَفِيِّ فَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ اخْتَفَى فِي حَافِظَتِهِ حِينَ الْقِرَاءَةِ فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَى النُّطْقِ بِهِ)) .

وأنا أقول : سبحان من وسع علمه كل شيء .

ثم قال تعالى : ((**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى**)) .

أي : ونوفقُك للطريقة التي هي أيسرُ وأسهلُ ، يعنى : حفظ الوحي ، وللشريعة السمحةِ التي هي أيسرُ الشرائعِ وأسهلُها مأخذاً ، ونوفقك لعمل الجنَّة .

و((**الْيُسْرَى**)) هِيَ أَعْمَالُ الْخَيْرِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْيُسْر ، وفي ذلك ملمحٌ إلى أهمية العمل الصالح وتحذيرٌ من التفريط في الأعمال .

قال الرازي : ((إِنَّمَا قَالَ : (**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى**) بِنُونِ التَّعْظِيمِ ؛ لِتَكُونَ عَظَمَةُ الْمُعْطِي دَالَّةً عَلَى عَظَمَةِ العطاء ، نظيرُهُ قوله تعالى : (**إِنَّا أَنْزَلْناهُ**) (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**) (**إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ**) دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَتَحَ عَلَيْهِ مِنْ أَبْوَابِ التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ كَانَ صَبِيًّا لَا أَبَ لَهُ وَلَا أُمَّ لَهُ نَشَأَ فِي قَوْمٍ جُهَّالٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ قدوةً للعالمين ، وهدياً للخلق أجمعين)) .

وأنا أقول : من سار على هدي النبي صلى الله عليه وسلم فعلاً وتركاً مخلصاً لله محسناً إلى عبيده نال الحظ الأوفى وكان في الرفيق الأعلى .

فقوله عَزَّ وَجَلَّ : ((**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى**)) أي : ونسيرك للخير ولعمل أهل الجنة ، فُسميتْ أعمالُ الخير : يسرى ؛ لأنَّها تعقبُ ذلك ، ولا يُسر إلا ما يسّرهُ الله .

ومن كلمات المفسرين في قوله تعالى : ((**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى**)) معناه : نَذْهَبُ بك نحوَ الأمورِ المسْتَحْسَنَةِ في دنياكَ وَأُخْرَاكَ من النَّصْرِ والظَفَرِ، ورِفعةِ الرسالةِ وعلو المنزلةِ يومَ القيامةِ ، والرفعةِ في الجنَّة .

فاليسرى : أعمال الخير التي تؤدى إلى اليسر.

وَمِنْ آثَارِ هَذَا التَّيْسِيرِ سماحة الشريعة عموماً وقد قال البخاري في صحيحه : ((بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**» ثم قال : وَكَانَ يُحِبُّ التَّخْفِيفَ وَاليُسْرَ عَلَى النَّاسِ ثم ساق حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً **يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا** ثم ساق حديث أنس بن مالك مرفوعاً : **يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا**» ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّه . ثم ساق حديث أبي برزة وفيه : ((وَذَكَرَ أَنَّهُ «قَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى مِنْ تَيْسِيرِهِ»

ثم ختم الباب بقول النبي صلى الله عليه وسلم **فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»

والتيسير بمعنى التسهيل والتخفيف ، وهو جعلُ العمل يسيراً على عامله بأنْ يُهيئَ اللهُ للعامل الأسباب التي تُهونُ عليه العسير، وتقرّب له البعيد .

واليسرى : مؤنث الأيسر ، بمعنى الأسهل ، والموصوف محذوف .

والمعنى : سنجعلُك أيُّها الرسول الكريم صاحبَ ذاكرةٍ قويةٍ تحفظُ القرآنَ ولا تنساه .

وسنوفقُك توفيقاً دائماً للطريقة اليسرى في كلِّ باب من أبواب الدّين : علماً وعملاً ، واهتداءً وهدايةً وسنرزقُك الأمورَ الحسنة التي تجعلُك تعيشُ سعيداً في دنياك ، وظافراً في أخراك .

وَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ يُقْرِئُهُ وَيُيَسِّرُهُ ، أَمَرَهُ بِالتَّذْكِيرِ ، إِذْ ثَمَرَةُ الْإِقْرَاءِ هِيَ انْتِفَاعُهُ فِي ذَاتِهِ وَانْتِفَاعُ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ فقال : ((**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**)) .

والمعنى : فذكِّر عباد الله عظمتَهُ وذكّرهم حقوقه فمن قصّر في حق الله عاقبه الله بأعز ما يملك ، وعِظْهم ، وحذّرهم عقوبته وسطوته .

وذكِّر الناسَ بما أوحاه الله من الكتاب والسنة ، لعلّهم يرجعون إلى الله ، وينتفعون بتذكيرك من يخافُ اللهَ منهم . أمَّا المعاندون الجاحدون فلا تنفع معهم الذكرى ولا تُجدي .

قال ابن كثير علينا وعليه رحمة الله : ((وَقَوْلُهُ : ((**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**)) أَيْ : ذكِّر حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِرَةُ ، وَمِنْ هَاهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ ، فَلَا يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَنْتَ بمحدِّث قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ . وَقَالَ : حَدِّثِ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟!)) . انتهى كلامه رحمه الله ، والآية ليستْ مقصورةً على هذا المعنى ، بل هي أشمل . فهي حاملةٌ هذا المعنى ، ومعنى ذكّر في كل حال نفعت أو لم تنفع ؛ لأنَّها في المحصلة نافعةٌ للمذكّر نفسه ، وأنا شخصياً ربما وعظتُ الآخرين ولم أُرد سوى نفسي ، وكذلك في التذكير يكونُ المرءُ حجةً للهِ على الناس ، وهذا المعنى مأخوذٌ منْ مقاصد الشريعة ، وكذا من اللفظة (**ذَكِّرْ**) إذ فيها معنى معاودة الموعظة والتذكير بها ، وفي سورة الأعراف : ((**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**)) .

والآية التي بعدها تدل على عالمية الرسالة وشمول الدعوة للجميع كما في قوله : ((**ويتجنبها الأشقى**)) فالمعنى مهمةُ الرسول وكلُّ داعية تذكرةُ الجميع وتذكرة الناس كافةً ، فمن استتجاب كانت هذه الذكرى نافعة له ، وهو المعنيُّ بقوله : ((**سيذكر من يخشى**)) وإنْ لم يتذكر كانت حجةً عليه ، وهو المعنيُّ بقوله : ((**ويتجنبها الأشقى**)) .

فقوله تعالى : ((**إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**)) إشارةٌ إلى أنْ يُذكّرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ داعيةٍ ما وجد محلاً للذكرى ، والذكرى لا تخلو منْ نفعٍ أبداً ، فإنَّها إذا لم تجد فى الناس منْ يستجيب لها ، وينتفع بها ، فإنَّها واجدةٌ فيهم أيضاً منْ يستجيبُ وينتفعُ ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ((**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**)) .

وهذا يعني أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وكلَّ داعيةٍ لا يتخلّى عن مهمة التذكير أبداً . وهذه السورةُ كانَ يقرؤها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في الجمعِ والأعيادِ لما فيها منْ وظيفة التذكير ووجوبه ، فكأنَّ رأسَ الأمر وذِروة سنامه الدعوة إلى الله .

فقيدُ الأمر بالتذكير بنفع الذكرى قيدٌ لازم ، ومنْ لزوم هذا القيّد أنْ يكون النَّبيُّ مذكّراً بدعوته دائماً ، لأنَّ مع كل ذكرى نفعاً ، وما دام النفعُ معها ، فهى مطلوبة من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أبداً ، وهو مذكرٌ أبداً .

وقيلَ : هناكَ محذوفٌ والتقديرُ إنْ نفعتِ الذكرَى وإنْ لم تنفعْ كقولِه تعالى : ((**سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر**)) قالَهُ الفَّراءُ والنَّحاسُ والجُرجُانيُّ والزهراويُّ .

فالتذكيرُ واجبٌ حتى مع العلم بأنَّه لا يجدي نفعاً لإلقاء الحجة وقطع المعذرة .

ثم قال تعالى : ((**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى**)) .

أي : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله ، أي : يتعظ بها من يخشى اللَّه تعالى أو المعاد ، كما قال الله تعالى : (**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) ، أي : بالقرآن ، وذلك أنَّ الذي يحملهم على الإيمان بالآخرة إيمانُهم بهذا الكتاب ؛ لأنَّ في القرآن تذكيرًا للآخرة ، وأمراً بالاستعداد لها ؛ فلذلك خشيته تحمله على الاتعاظ بالذكرى والانتفاع بها ، والخشية هي مزيجٌ من الخوف والحب والرجاء .

قال أبو حيان : ((أَيْ : لَا يَتَذَكَّرُ بِذِكْرَاكَ إِلَّا مَنْ يَخَافُ ، فَإِنَّ الْخَوْفَ حَامِلٌ عَلَى النَّظرِ فِي الَّذِي يُنْجِيهِ مِمَّا يَخَافُهُ ، فَإِذَا نَظَرَ فَأَدَّاهُ النَّظَرُ وَالتَّذَكُّرُ إِلَى الْحَقِّ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مَا وُفِّقَ لَهُ)) .

ثم قال تعالى : ((**وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى**)) .

((**وَيَتَجَنَّبُهَا**)) أَيْ : الذِّكْرَى أَيْ : يَتْرُكُهَا جَانِبًا لَا يَلْتَفِت إِلَيْهَا ((**الْأَشْقَى**)) بِمَعْنَى الشَّقِيِّ أَيْ الْكَافِرِ أي : الذي شْقَى : بمعنى الْمُبَالِغِ فِي الشَّقَاوَةِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَشْقَى الْكُفَّارِ ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِهِ ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ هُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ آمَنَ بِرَسُولٍ قَبْلَهُ . ثُمَّ وصفه بما يؤول إِلَيْهِ حَالُهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ صَلْيُ النَّارِ عافانا الله وإياكم وَوَصَفَهَا بِالْكُبْرَى .

فَالْأَشْقَى : هُوَ الْكَافِرُ ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ النَّاسِ شَقَاءً فِي الْآخِرَةِ لِخُلُودِهِ فِي النَّارِ .

ثم قال تعالى : ((**الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى**)) هِيَ نَارُ الْآخِرَةِ وَالصُّغْرَى نَارُ الدُّنْيَا وقوله تعالى : ((**ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى**)) أي : لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه .

يُلقَون فى هذه النار ، يُخلدون فيها ، وهو خلودٌ فى عذابٍ شديدٍ- وقانا الله شرّه- وأنَّ الحياة فى هذا العذاب ليست حياةً يجدُ فيها الحيُّ طعماً للحياة ، وليستْ موتاً يستريح فيه من هذه الحياة فلا هو فى الأحياء ، ولا فى الأموات ، بل هو في حياة متلبسة بالموت ، وفى موت ملبس بالحياة كما قال تعالى : ((**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ**)) وهذا أقسى ألوان العذاب وأشده .

((**ثُمَّ لَا يَمُوتُ**)) أي : فيستريح ، وَلا يَحْيى حَيَاةً هَنِيئَةً ، وَجِيءَ بِ(ثُمَّ) الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّرَاخِي إِيذَانًا بِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الشِّدَّةِ ؛ لِأَنَّ التَّرَدُّدَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ أَشَدُّ وَأَفْظَعُ مِنَ الصَّلْيِ بِالنَّارِ.

فقَوْلُهُ تَعَالَى : ((**ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا**)) نَفَى عَنْهُ الضِّدَّيْنِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالذَّاتِ إِمَّا حَيٌّ وَإِمَّا مَيِّتٌ ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا ، وَلَكِنْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَتَغَيَّرُ الْمَوَازِينُ وَالْمَعَايِيرُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّعْذِيبِ ، إِذْ لَوْ مَاتَ لَاسْتَرَاحَ ، وَمَعَ أَنَّهُ يَتَلَقَّى مِنَ الْعَذَابِ مَا لَا حَيَاةَ مَعَهُ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ((**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**)) .

وبعد هذا البيان من الرب العزيز القهار عن سوء عاقبة الأشقياء ، ساق سبحانه ما يُدخلُ البهجةَ والسرورَ على النفوس ، عن طريق بيانِ حُسن عاقبةِ السُّعداء ، فقال تعالى : ((**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**)) أي : نجَا من المكروهِ وظفرَ بما يرجُوه . قد نجح وأدرك طُلبته مَنْ تطهَّر من الكفر والمعصية ، وعمل بما أمره اللهُ به ، فأدّى فرائضه وعمل بما يُرضي ربه .

أي : من أتى بما تزكو به نفسُهُ ، أو أتى بما تتطهرُ نفسه به .

ف(**تَزَكَّى**) معناه : طَهَّرَ نَفْسَه ونمّاها بالخير .

ثم قال تعالى : ((**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**)) .

وذكر اسم ربه ، أي : في كل أحايينه عند الأكل وعند الشرب وعند النوم وعند الهبوب منه ، وفي الصلاة وخارج الصلاة من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ، وعند كل عمل ؛ إذ الإنسانُ مأمورٌ بذكر ربه عند كل عمل ، وعلى كل حال كما بوب البخاري في صحيحه : ((**باب**

التَّسْمِيَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ الوِقَاعِ)) وسيأتينا لذلك مزيد بيان عند تفسير سورة العلق إن شاء الله تعالى .

قال الرازي : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ذَكَرَ مَعَادَهُ وَمَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ فَصَلَّى لَهُ . وَأَقُولُ (والقول للرازي) : هَذَا التَّفْسِيرُ مُتَعَيِّنٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَرَاتِبَ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِ ثَلَاثَةٌ أَوَّلُهَا : إِزَالَةُ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ عَنِ الْقَلْبِ وَثَانِيهَا : اسْتِحْضَارُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَثَالِثُهَا : الِاشْتِغَالُ بِخِدْمَتِهِ)) .

ثم قال تعالى : ((**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**)) أي : تختارون الحياة الدنيا ، وفي هذه الآية إِشَارَةٌ إِلَى الزَّجْرِ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الدنيا .

((**بل تؤثرون الْحَيَاة الدُّنْيَا**)) يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكِينَ ، أَيْ : يَزْعُمُونَ أَنَّ الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ لَا تكون ؛ فالحياةُ الدنيا زائلةٌ فانيةٌ ، والآخرةُ هي الباقيةُ .

والعملُ الصالحُ باقٍ نفعُهُ مستمرٌ خيرُهُ في الدنيا والآخرة ، وقد حكى الله في سورة الحاقة الخطاب لأهل الجنة : ((**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**)) فالأعمالُ الصالحةُ جعلها الله سبباً لدخول الجنَّة ، ومادةً لنعيمها ، وأصلاً لسعادتها ؛ والأيامُ الخاليةُ هي أيام الدنيا تخلو وتذهب وتنقضي أمَّا أيام الآخرة فهي باقية .

وسببُ إيثارِ الدنيا على الآخرة عند أهل الغفلة حبُ العاجلة والجهلُ ببقاء الآخرة . والآخرة يُؤْثِرُهَا الْبَرُّ لِاقْتِنَاءِ الثَّوَابِ ، ويحب الدنيا للتزود بها من الأعمال الصالحة للآخرة ، وقد بوّب ابن المبارك في كتابه الزهد : ((باب من أحب الدنيا لعمل من الأعمال الصالحة)) .

قال الغَزَّاليُّ : وإيثارُ الحياةِ الدنيا طَبْعٌ غالبٌ على الإنسانِ ، ولذلك قال تعالى : ((**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**)) ثمَّ بَيَّنَ سبحانه أنَّ الشَّرَّ قَدِيمٌ في الطباعِ ، وأنَّ ذلكَ مذكورٌ في الكتُبِ السالِفَة فقال : ((**إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى**)) انتهى كلامه يرحمنا الله وإياه.

وَالْإِيثَارُ: اخْتِيَارُ شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ مُتَعَدِّدٍ .

وَالْمَعْنَى : تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِعِنَايَتِكُمْ وَاهْتِمَامِكُمْ .

ثم قال تعالى : ((**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**)) خَيْرٌ من الدنيا بصفاء نعيمها وعظيم مادتها ، وَأَبْقى بدوام هذا النعيم .

فإيثارُ الحياة الآخرة خيرٌ وأبقى من إيثار الحياة الدنيا .

إِنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِوُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّ الْآخِرَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى السَّعَادَةِ الْجُسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ ، وَالدُّنْيَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا .

وَثَانِيهَا : أَنَّ الدُّنْيَا لَذَّاتُهَا مَخْلُوطَةٌ بِالْآلَامِ ، وَالْآخِرَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ ، وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ ، وَالْبَاقِيَ خَيْرٌ مِنَ الْفَانِي .

قال ابن كثير : ((ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ((**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**)) أَيْ : تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ ، وَتُبْدُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُهُمْ وَصَلَاحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، ((**وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**)) أَيْ : ثَوَابُ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دنيَّة فَانِيَةٌ ، وَالْآخِرَةَ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى ، وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا ، وَيَتْرُكُ الِاهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ؟!)) .

وقَالَ قَتَادَة : فِي جَمِيع كتب الْأَوَّلين أَنَّ الْآخِرَة خيرٌ وَأبقى .

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى ، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى ، لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُؤْثَرَ خَزَفٌ يَبْقَى ، عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى . قَالَ : فَكَيْفَ وَالْآخِرَةُ مِنْ ذَهَبٍ يَبْقَى ، وَالدُّنْيَا مِنْ خزف يفنى .

ثم قال تعالى : ((**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى**)) .

((**إن هذا**)) الذي ذكرت من فلاح المتزكّي وكون الآخرة خيراً من الدُّنيا ((**لفي الصحف الأولى**)) مذكورٌ في الكتب المتقدّمة .

((**إِنَّ هذا**)) إفلاحُ منْ تزكى وكونُ الآخرةِ خيراً من الأولى ((**لَفِي الصُّحُف الْأُولَى**)) أَيْ الْمُنَزَّلَة قَبْل الْقُرْآن .

ونظير هذا مما جاء في السنة النبوية قول النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ((**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**)) أي : إنَّه مما جاءتْ به الكتبُ الأولى واستمر في الشريعة المحمدية .

قال تعالى مبيّناً : ((**صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**)) .

وهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ "النَّجْمِ": ((**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**)) .